حول الأدب الديموقراطي

الماضي المرفوض

بقلم جابر النقاش

من الصعب ان نحدد تماماً الطريق الذي يقطعه حاضر العالم الحديث إلى المستقبل . ذلك لأن عناصر الاضطراب المختلفة ، تقف في مواجهة الحياة الانسانية إلى درجة يحس الفرد معها انه مهدد لا يطمئن على شيء يملكه حتى صفاته كإنسان ، فحريته مفقودة أمام المصادفة ، والسلام الذي يعيش فيه سلام شكلي يبدو واقع الحياة معه اكثر اضطراباً منه في حالة الحرب ذاتها ، ولا نخالف الحقيقة إذا قلنا إننا بالفعل في حالة حرب ، كل ما هنالك ان الخطوة الاولى الايجابية قد تأجلت ، كنتيجة طبيعية للرغبة الملحة في ضمان النصر بالاستعداد المستمر ، حتى تكون الطاقة أقوى على الثبات في لحظات الصراع .

ولا يمكن ان نعتبر الحرب في ذاتها مركز المشاكل التي تواجه الانسان ، فهي ملازمة لماضيه منذ المراحل الاولى للتاريخ . أما المحنة الجديدة تماماً بالنسبة لعالمنا ، فهي « الشكل » الذي أخذته الحروب الحديثة ، كنتيجة مباشرة لتدخل الآلة في صورة ايجابية ومرنة ، بحيث يمكن ان يستقر عن طريقها السلام الحقيقي على الارض . ويمكن كذلك ان تقوم الحروب ذات الطابع العنيف ، والانسان الممتحن في تقدمه الحضاري يحاول محاولة طبيعية ومستمرة ، ان يتخذ من الفكر قوة تحفظ توازن الحياة ، فلا تميل مع الجانب الذي يهددنا باستمرار . ومن هنا كانت المذاهب المعاصرة ، التي حاولت تحديد قيمة الانسان والعمل على تشكيل وضعه في صورة معينة ، هي النتيجة الطبيعية لاحساس الانسان باضطراب حياته ، وتعدد مشاكله . ولقد تحول بعض هذه المذاهب الى واقع عملي ، بتحققها في المجتمعات الانسانية المختلفة ، فقامت نازية المانيا ، وفاشية ايطاليا ، وكان نصيبها الفشل خلال تجربة الحرب العالمية الثانية . ويقوم في روسيا الآن بشكل عملي ، المذهب الشيوعي ، حيث تقابله الرأسمالية الاميركية . وقد حاولت تلك المذاهب كلها تكييف الانسان في صورة معينة ، وتغليب هذا اللون من التكيف ، على مختلف البيئات الانسانية ، ولكن الصراع لم يلبث أن قام بين تلك المذاهب ، حيث تبدو أعنف صوره في ذلك الصراع القائم بين الشيوعية والرأسمالية ، ومن الطبيعي أن يكون الانسان هو محور هذا الصراع ، الذي يعمل على تهديد الذين يعيشون في العالم الحديث ، بلا ذنب ، ولا خطيئة ، إلا أن وجودهم بالمصادفة ، قد تحدد نطاقه الزمني في هذه الفترة التي أخذت فيها الحياة طابع مشكلة عنيفة المضمون والاطار .

وكان من ظواهر المقاومة لعناصر الدمار في هذا الصراع ، أن يظهر المذهب الوجودي بشكله عند سارتر ، بحيث يمثل هذا المذهب الاستجابة المباشرة لحاجة الانسان المعاصر ، الى اعادة النظر في مقومات وجوده ثم محاولة تكييفها على شكل جديد ، بارادته واختياره ، ما دامت المذاهب الأخرى التي أعطته شكلاً معيناً ، قد سلبت منه بالتجربة عنصرين مهمين هما : فنه وحريته . فالحياة الآلية في اميركا ، حيث تقوم الرأسمالية ، قد رفضت الاتجاهات التي يمثلها شتاينبك ، وريتشارد رايت ، ولم تتح الحرية والمجال لفنهما ، الذي يحاول بقوة أن يعيد للانسان حريته الضائعة بين الآلة ، والاستسلام للفطرة ، بالدعوة إلى ضرورة الحرص على الشكل الانساني لحياتنا ، والعمل على تحريكنا في نطاق انفعالي غير جامد ، ولا معتمد على امكانيات آلية او بدائية ، تستمد عناصرها من الغريزة ، كما هو الحال تماماً في فن هوليوود وحياتها ، وكذلك لم يعد للفن الروسي في ظل الشيوعية ذلك الاثر الايجابي في إشباع وجدانات الانسان ، والاستجابة للقيم العليا التي تعطي لحياته صفة الانسانية ، كما كان شأنه قبل الحركة الشيوعية التي سيطرت على الحياة منذ سنة ١٩١٧ حتى اليوم ، وذلك لأن الشيوعية قد اعتبرت الفن مرفقاً من مرافق الدولة — بعد أن أخذت شكلها في حدود المذهب — يجب أن يخضع لها ، ويؤدي مهمة الاستجابة لمطالبها مهما خالفت تلك المطالب واقع النفس الفردية .

والخطأ البارز في تلك المذاهب ، والذي كان مقدمة لظهور الوجودية ، انها اخذت ترغم الحياة ، أو تستغلها عندما تفقد إرادتها وحرية اختيارها ، لتبقى هي على حساب الانسان ذاته ، إذ لا مانع ان يتقدم للدفاع عنها ولو أدى ذلك الى ان يموت ، كما مات بطل « قضية » كافكا ، بشكل غير انساني . والوجودية

محاولة لانقاذ الانسان من هذا كله ، بارجاع ذاته الخالصة اليه، ليعيد تشكيلها على صورة تضمن له صفتها الانسانية ، بعد تجاربه العنيفة التي مرّ بها ، وعلى رأسها تجربتا الحرب والسلام الشكلي .

كل تلك المحاولات الفكرية تتصارع من اجل تحققها في مجال إنساني على نطاق أوسع من غيرها، ويأخذ صراعها شكلاً عنيفاً بالفعل ، ولكنه مع ذلك دليل على الاستجابة للواقع المضطرب ، والانفعال به ، وهو دليل ايضاً على انها تحاول شق الطريق الى مستقبل أكثر قابلية للحياة الانسانية ، ولهذا فهي — بما فيها من اخطاء — محاولات فكرية راقية تعمل كلها على مواجهة مشاكلنا الحديثة دون ان تفر ، في شكل سلبي ، إلى ماض بعيد أو قريب لتستقر فيه، ولكنها تعود اليه، ان عادت، لتضيف له ، ما دامت قد ظهرت في مجتمعات ذات ماض من صفاته ان الاضافة اليه ممكنة .

وليس في التجارب التي مرت بها مجتمعات الشرق العربي على وجه الخصوص ، عنصر ضعف إلا من ناحية الاستجابة لها ، فهي في الغالب استجابة سلبية غير فعالة، بحيث تحمل في مضمونها ثورة على وضع ثم تحاول تصحيحه باحلال غيره محله . ولذلك فمحنة الانسان في مجتمعاتنا ، أعنف من غيرها في المجتمعات الانسانية الاخرى ويمكن ان نلمس بوضوح ان الانسان فيها باختياره ، قد اصبح نوعاً ثانياً غير ذلك الموجود بالفعل في امم العالم التي تنصهر باستمرار ، ولكنها تستفيد دائماً ، ففي مجتمعات الشرق ، نجد فكرة الاستعمار متحققة بشكل مادي يمكن ان نتصور تلاشيه في يوم ما ، وبشكل معنوي يصعب لقوته ، ان نتصور اليوم الذي سيختفي فيه . إن الانسان الاول هو ذلك الذي يعيش في عصره أو يسبقه ، أما الانسان الثاني فهو ذلك الذي يختار التجمد امام واقعه ، فيعيش بعيداً عنه ، معتمداً على أمجاد الذين ماتوا ومكتفياً بما تركوه من بقايا حياتهم ، بعد ان يعمل منطقه الكسول على تبرير وضعه ، كهارب من حاضره ، بينما تنظر الحياة اليه ، على انه وضع شاذ لا يمكن اعطاؤه صفة الانسانية السليمة بحال من الأحوال.

والظاهرة المرضية التي تواجه الدارس لواقع المجتمعات في الشرق العربي ، هي الايمان في عبودية بالماضي ، وعدم الاحساس بتيار الزمن حتى يستجيب الانسان للتغير الذي يطرأ على الحياة ، ويستغله على شكل إيجابي في التمهيد إلى مستقبل أرقى، والايمان بالماضي على هذا الشكل قد أفقد هذه المجتمعات فرصاً كثيرة للتقدم ، وأصاب حيويتها بالخمول ، بحيث لا تستطيع ان تواجه مشكلة من مشاكلها، او تبذل جهداً له قيمة في سبيل الوصول إلى حلول صالحة .

هذا الماضي الذي يدعو البعض في صراحة إلى الاعتراف به كممثل لوجداننا الجماعي ، قد أساء الى حياتنا بكل ما تحمله كلمة الاساءة من عناصر جزئية. وأقرب مثل يمكن أن نقدمه، هو انفعالنا الوجداني والفكري بمأساة اللاجئين ، إذ أن نظرة سليمة اليه تبين لنا مدى الشكلية في موقفنا منها حيث لم نستطع ان نستخرج المشكلة الكامنة فيها ، ولم نستطع بالتالي ان نعطي موقفنا امامها صفة الايجابية التي تواصل السعي في محاولة مستمرة للبحث عن الحل . والذي حدث تماماً هو ان انفعالنا الوجداني بهذه المشكلة قد أخذ صورة العقيدة القديمة (إن لم يكن في إطارها ، ففي المضمون) ، ولو جمع ما كتب متصلاً بها ، وهو كثير إلى حد بعيد ، لظهرت فيه حقيقة الموقف السلبي للوجدان العربي الذي كان يتأثر خطى الماضي ويعمل في حدود أشكاله الفنية ، ولو ان وجداناً انفعل بصدق ، وكان انفعاله معتمداً على تجربته الذاتية ، لا تجربة بعيدة تتعلق بالآخرين ، لكان هذا اللون الانفعالي كفيلاً بالوصول إلى مرحلة فكرية ذات طابع إيجابي هي درامة المشكلة من زواياها المختلفة دراسة وعي تشارك في إعادة الانسانية المسلوبة إلى هذا المجتمع الطريد بلا وطن ، ولا حاضر ، ولا مستقبل ، مع أنه يتنفس على الأرض تماماً كما يفعل الأحياء .

لقد كانت محنة اليهود في ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية وما قبلها ، عاملاً من العوامل القوية التي أعطت اينشتين ، صاحب النسبية ، فرصة الحياة في شكل فيه عبقرية ومقاومة وإصرار ، وكانت هي نفسها العامل الأول في تكوين ستيفان زفايج كفنان صاحب رسالة إنسانية نادرة ، دعت اليها أعماله الفنية كلها وتحققت في حياته ، بينما كانت محنة اللاجئين بما لها من مقدمات ونتائج عنيفة ، مجالاً ظهر فيه الوجداني العربي ، بانفعالاته الجزئية والتي لم تتغير عن صورتها في الماضي ، ولا يمكن ان تعدو حدود الحرص على الحياة الفردية ، إلى الاحساس الحيوي الواسع بمشكلة عرضت مجتمعاً بأكمله لحياة لا إنسانية ، فقد فيها أقل حقوقه ثم سلم بعد ثورة سلبية بواقعه وكأن هذا الواقع كان نتيجة طبيعية لا شذوذ فيها ، . . نتيجة أخيرة لا

تتطلب التغيير .

ان طبيعة الماضي ، الذي يراد له ان يمثل وجداننا الجماعي لا يمكن ان تساعد على الاعتراف به كأساس لحاضر سليم له امتداد في مستقبل يواصل سيره الى عالم تنحل مغلقاته ، وتتضح صفاتنا فيه ، فهو ماض قد اصاب حاضرنا بالجمود وقطع عليه الطريق الى حياة إنسانية صالحة ، ومن هنا كانت حاجتنا الى حركات فكرية تخلصنا من هذا الماضي ، برفضه كفن ، والبناء على اساس جديد هو طبيعة الحياة التي نعيشها ، لنحاول بين اتجاهاتها الخاطئة واتجاهاتها الصائبة ان نجد الشكل الذي نختاره لأنفسنا ، كمخلوقات إنسانية لها واقع يميزها عن غيرها ، مع الاحتفاظ بالقسط الضروري من العناصر التي ينبغي ان تتوفر في المجتمعات المشتركة في نطاق زمني واحد له مشاكله العامة التي تستجيب للحياة ، والتي تؤمن بخطوطها الكلية إيماناً واثقاً بطريقه الى المستقبل . وليست هذه الدعوات قائمة على اساس فصلنا عن الماضي لأنه ماض وحسب ، بل لأنه ماض غير قيم تنعدم العلاقة بيننا وبينه ، كلما احتجنا إلى إشباع مطالبنا الوجدانية ، او اعوزتنا طاقة المقاومة لما يعترضنا من مشاكل . واغلب الظن ان هذا الماضي نفسه لم يكن ذا علاقة بما كان يدور في مجتمعاته من المشاكل الانسانية التي لا بد ان توجد في اي بيئة بشرية ما دام قد تهيأ للانسان وجود اجتماعي يمثل مرحلة متطورة عن تلك التي كان يعيش فيها بدائياً تحت سيطرة بيئته كمخلوقاتها الاخرى . وهذا الماضي كما يبدو لنا يمثل شكلاً حضارياً لا يتفق مع الرقي النفسي للانسان في مجتمع ما ، حيث استغرق الوجدان في قالب فني واحد هو الشعر ، والقصيدة على وجه الخصوص ، ثم تحول هذا القالب الضيق الى مرفق استعمرته السلطة المادية التي تتمثل في الحاكم ، وتحطمت فيه نتيجة لهذا قيمة الانسان ، فتجمد في رضى بواقعه دون ان يجد فناً يدفعه الى الثورة ، ويساعده على تغيير اوضاعه وتحويلها الى شكل جديد يتلاءم مع قيمته الانسانية ، ولو كان ذلك الماضي الفني ذا علاقة من ناحية المضمون ، بحياة المجتمعات التي ينتسب اليها ، لحمل الينا انفعالات إنسانية اكثر نضجاً ، ولظهر له أثر إيجابي في صنع تاريخ يمثل حياة اخرى غير تلك الجامدة التي لم يتغير فيها سوى الشكل والجزئيات .

وهناك حقيقة اخرى لا يمكن ان ينفيها منطق الداعين الى الاعتراف بالماضي ، إذ انها تستمد حق البقاء من منطق آخر سليم ، هو منطق الحياة ، وهذه الحقيقة هي ان الذين يتكلمون العربية ، مجموعة من الشعوب يختلف تكوينها التاريخي والجغرافي وبالتالي تكوينها النفسي اختلافاً لا بد ان يقام له وزن عند تحديد معنى الماضي ، فان الجزيرة العربية مثلاً شيء آخر غير مصر أو الشام ، ومن هنا فيجب ان نضع الفواصل بين ماضي مجتمع وماضي مجتمع آخر ، ووجود صفات أو مصالح مشتركة هنا وهناك ، لا يبرر مطلقاً ان نعمم مقومات مجتمع واحد على غيره من المجتمعات ، فالطابع الخاص لمجتمع ما ، يجب ان يوزن بميزان له أهميته ، كعنصر بارز يدخل في نشاط مجتمعه الفكري والفني ، وماضي الأدب العربي في المرحلة الاولى من مراحله ، يتعلق بالمجتمع العربي في شبه الجزيرة ، وبمراجعة التاريخ يمكن معرفة المجتمعات الاخرى التي يتعلق بها هذا الماضي في مراحله المختلفة ، ومن هنا نستطيع ان نقول إن مصر مثلاً قد اتخذت شكلاً جديداً بعد الغزو العربي ، لا علاقة له بماضيها على الاطلاق حيث توقف تاريخها الفني عن المسير في طريقه كتاريخ مصري خالص ، وتدخلت في تكوين غالبيته عناصر غير مصرية ، فاذا أردنا ان نحدد الماضي الفكري لمصر تحديداً منطقياً سليماً ، ترتضيه الحياة التي صنعته ، فهو هذا الماضي الذي بدأ مع بداية القرن العشرين في خطوط غامضة متشابكة اتضحت بعد ذلك في السنوات التي تلت سنة ١٩٢٠ حيث اصبح لنا كيان فكري يمكن البناء على اساسه والاضافة اليه ، ويمكن كذلك نسبته الى مصر باعتبارها الاطار البارز الذي تحدد فيه طابع هذا الكيان . وإذا كان هناك قبل هذه الفترة أدب آخر يمكن اعتباره ماضياً يمثل المجتمع المصري ، فذلك هو الأدب الشعبي الذي قام الدكتور يونس صاحب دعوة الأدب الديموقراطي بمحاولة تحديد ملامحه وابرازه الى الحياة . والذي يمنعنا هنا من التسليم به كماض في لمصر ، أن المشكلات التي تدور حوله لم تأخذ شكلها الأخير الذي يمكننا معه ان نحدد موقفنا منها ، ولا يزال الادب الشعبي في مصر وغيرها موضوعاً قابلاً للدراسة الطويلة حيث تمكن الاضافة الى محاولة الدكتور يونس ، والاستاذ مارون عبود ، وغيرهما من الذين قاموا بالعناية الايجابية في شكل علمي بهذا اللون من الأدب .

فالدعوة الى الأدب الديموقراطي هي محاولة قيمة من تلك

المحاولات التي تقوم على أساس إشراكنا في الحياة — حيث نقف سلبيين — بايجاد شكل معين لوجداننا المفقود في ماض تنعدم العلاقات التي تربطنا به من جانب والتي تربطه بالمفهوم الصحيح للفن من جانب آخر ، وهي محاولة سيعمل فهمها على خلق فن يشارك في الدفاع عن الانسان المعاصر وهو مهدد في كل معنويات وجوده الايجابي: وجوده الذي يؤثر ويغيّر وفي نفس الوقت يتأثر ويتغير ، والأدب الديموقراطي رفض لهذه الاشياء التي تتلقاها حواسنا في شكل فن ، ثم يتضح انها تحيلنا الى شيء سلبي في الحياة يعمل في عبودية ، ولا حق له في ان يكون إنساناً يعيش في حركة دائمة ، فينفعل بالحب والبغض والايمان والانكار ، والأمل في تحسين الحاضر ، والحياة في مستقبل يملكه ويملك كل حقوق الثورة على ما يعترضه في الطريق من عقبات ، ... كل هذه الأشياء التي تعيش بعيداً عن الانسان وتحاول العمل على تجميده كما يعمل هذا الماضي الفني الذي يدعو البعض اليه ، ليس هناك ما يبرر على الاطلاق اعترافنا بها ، وليس هناك ما يمنعنا من القول ان مثل هذا الماضي لا يبرر بقاءه ، إلا الحاجة إلى دراسته من حيث انه ظاهرة من ظواهر الحضارة في مجتمع إنساني ما . ولقد حددت الحياة بالفعل رأيها في تلك الظاهرة كفن مرتبط بالانسان والارض ، منذ ان ابتدأت عندنا تستجيب للدعوات الجديدة التي تعتبر الفن قوة تدافع عن الانسان أمام القوى الاخرى كالآلة والموت والمصادفة .

دعوة الدكتور عبد الحميد يونس هى الدعوة التي تستجيب لحاجتنا إلى مد حاضرنا في مستقبل إنساني واضح وقيم ، تجد فيه مشكلاتنا حلها أو تتحد على ان يتجدد الانسان معها ، بحيث تزداد طاقة المقاومة فيه ليقوى على مواجهة ما يقابله ، وهي لهذا دعوة الحياة النابضة المتحركة ، حيث تستمد مسوغات وجودها من إحساسنا بأن الفرار إلى ماض ، طبيعته تدعو إلى رفضه ، لن يؤدي الى تغيير اوضاعنا الخاطئة ، أما هؤلاء الذين عجزوا عن الاستجابة لواقع الحياة المعاصرة واختاروا الفرار على المقاومة ، فستعمل الحياة على تقديم الدليل القوي الذي يُظهر جمود الحالة التي يمثلونها ، بالاستجابة لمن اختاروا المقاومة ، والطموح إلى وضع إنساني سليم .

القاهرة — **رجاء النقاش**

ذكريات القرية

كانت لنا في القرية الغنـــاء ايام عجيبـــه
ولّت كما ولى الهناء .. مخلفاً فيها ندوبه

*

كانت لنا تحت النخيل ملاعب نشوى ذهيبه
كانت لنا .. يا طيب ذكراك المحببة السليبه
أنا لست أنسى ظلة الليمون تقدح فيه طيبه
والترعة السمراء تخطر في أراضينا الرحيبـه
والبط يسبح تحت ظل البوص في البرك العشيبه
والنورج الدوّار يلهث فوق اعواد صخوبه
والشاي تحت شجيرة الجميز في أصباح « طوبه »
والجدة العمياء ... في صمت الظهيرة مستريبه
«من أنت؟» تلقيها .. وتسرد بعدها قصصاً رهيبه
عن مارد عفريت يذرع في الدجى الطرق القريبه
هو تارة قط واخرى راكب فرساً مهيبـه
ليطير بالولد الذي يلقى الى دنيـــا مريبه
والعيد .. حين نميس في الطرقات بالحلل القشيبه
وقروشنا بين الجيوب مثار أحلام خصيبه
كم ثرثرت أفواهنا وتناقلت قصصاً طروبه
من علبة الحلوى التى ذاقت حلاوتها «لبيبه»
لما أتى عم لها من رحلة الحج الحبيبـــه

*

انا لست أنسى تربتي السمراء .. والقصص الخصيبه
عن موسم القطن البئيس .. وركدة السوق العصيبه
انا لست أنسى قصة الطغيان .. والعين الرقيبه
والقوت .. كد شهورنا العجفاء .. يؤخذ في الضريبه
والسوط ، سوط الجند ، يحفر فوق اوجهنا دروبه
وعويلنـــا لما مضوا بأبي إلى بلد غريبـــه
والقيد بين يديه .. والطرقات خالية كئيبه
بكماء .. والفجر المطل يزف للدنيا طيوبـه
وعلى فراش القش .. تسفح أمنا دمع المصيبه

*

كانت لنـــا في القرية الغناء ايام عجيبـه
ولّت كما ولى الهناء ... مخلفاً فيها ندوبه

القاهرة — **كمال نشأت**

من «رابطة النهر الخالد»